

تجنبوا سفك الدماء

2017-09-14 شبكة النبا

في ظل الحكومات الناجحة تسود علامات ومؤشرات أكثر وضوحاً من سواها، أول تلك العلامات السياسة العادلة، وحماية الحقوق المدنية، وحفظ كرامة المواطن، وتحقيق مستوى معيشي جيد، وإطلاق حرية الرأي وحماية هذا الحق، وعكس هذا يحدث غالباً في ظل الحكومات الفاشلة، حيث ينظر بعض الحكام إلى السلطة كأنها ملك صرف له ولمعاونيه، لكن الحكومة في حقيقة الأمر هي عبارة عن مجموعة وظائف يقوم بها عدد من الوزراء يقودهم رئيس يسمى بـ (رئيس الوزراء)، أو رئيس الجمهورية في النظام الرئاسي، هدفها إدارة شؤون الدولة.

فالحكومة ليست ميزة على الآخرين، وملاء المنصب الحكومي الكبير أو الحساس ينبغي أن لا يمنح صاحبه تمييزاً على الآخرين تجاه القوانين السارية، باستثناء من هو حاصل على الحصانة، وهذه لا تُعطى لأي كان، وإنما هنالك تشريعات معروفة في كل دول العالم تمنح بعض موظفيها حصانة من الملاحقة القانونية وفقاً لتشريعات دستورية يقرها مجلس النواب أو الجهات التشريعية المختصة.

لهذا السبب يختصر سماحة المرجع الديني الكبير، آية الله العظمى، السيد صادق الحسيني الشيرازي (دام ظله)، رؤيته للحكومة من حيث التفسير والمهمات، فيقول سماحته في كلمة قيمة لا تقبل اللبس أو الغموض:

إن (الحكومة إدارة وليست ملكاً).

فالمناصب الحكومية بكل ما تتوفر عليه من نفوذ وامتيازات، لا يمكن أن تكون من ضمن ممتلكات الحاكم، فهي وظيفة حالها حال الوظائف الأخرى، والحاكم أو الوزير ليس أكثر من موظف يتقاضى أجراً على خدمته التي يقوم فيها بحسب ما تقتضيه الوظيفة، وبالتالي فهي قضية إدارة لا أكثر، ولا يمكن أن تكون نوعاً من أنواع الامتلاك.

ولكن في قراءتنا للتاريخ الإسلامي السياسي، سوف نلاحظ بسهولة كيف تحولت الحكومة من إدارة الى امتلاك، وقد بدأ ذلك بالعصر الأموي ثم العباسي حيث صارت السلطة ملكا صرفا يتوارثه الأبناء عن آباءهم، ولا نقاش في هذا الأمر، وقد أدى تكريس هذا المنهج الى القمع والتجويع والإقصاء والتعذيب كوسائل يحمي بها الحكام هذا الملك ونعني به العرش من خلال التجاوز على حقوق الأمة وتجويعها.

لهذا شدّد سماحة المرجع الشيرازي على هذه القضية وهو يخاطب الشباب بقوله: (أيها الشباب الأعزّة! عليكم بالتاريخ، وانظروا في تاريخ حكومة بني أمية وحكومة بني العباس، لتعرفوا كم من الناس ماتوا من الجوع في ظل هاتين الحكومتين؟!).

نموذج الحكومة العادلة

متى يمكن أن يموت الناس من الجوع، وما هي أسباب ذلك، وهل حدث فعلا أن مات إنسان بسبب الجوع، في السابق نعم هناك شواهد تؤكد أن الحكومات الفاشلة لم تكن تبذل ما يكفي لتحقيق العدالة الاجتماعية، وقد مات من الجوع فعلا، الصحابي الجليل (أبو ذر الغفاري)، والسبب دائما هو تقصير الحكومات وجعلها من السلطة ملك للحاكم ومعاونه من الوزراء، وحين تصبح الحكومة ملكا، هنا لابد أن تكون النتائج كارثية على الأمة.

وما يثير الاستغراب حقا، أن الحكومات الزمنية الحالية لم تتعلم من النموذج الحكومي الباهر لقيادة الإمام علي (ع) للأمة الإسلامية في عهده، حيث توسعت الدولة لتصبح واسعة تعد أكثر من خمسين دولة من دول الحاضر حيث امتدت الى الصين واسبانيا وسواهما، ومع ذلك لم تجد فقيرا واحدا فيها ولا جائعا، ولا شخصا مرميا في السجن بسبب رأيه المعارض للحكم.

ويعطينا سماحة المرجع الشيرازي شاهدا على ذلك فيقول: (ممن مات من الجوع هو الصحابي أبا ذر الغفاري رضوان الله تعالى عليه. بينما لم يمت حتى شخص واحد من الجوع في حكومة الإمام أمير المؤمنين صلوات الله عليه. ولم يكن حتى سجين سياسي واحد أو قتييل سياسي واحد في حكومته صلوات الله عليه. ولم يُعثر على شخص عاش بلا بيت ملك له).

ولذلك كانت رؤية الإمام علي للسلطة على أنها تكليف وليس تشريف، وهي وظيفة خدمية إدارية لا أكثر، ولا يمكن أن تكون وسيلة لسلب المال العام، أو لاستخدام القوة الغاشمة ضد الناس أو قمعهم، أو الاعتداء على الآخرين، لذلك كان من أهم مبادئ هذه الحكومة أنها لن تبدأ الحرب مع الآخر قط، وهي سياسة انتقلت الى الإمام علي من الرسول (ص)، حيث كانت سياسته تتركز على الجنوح الى السلم في حال جنح إليه الطرف الآخر، ولم يبدأ الرسول (ص) أحدا بالحرب قط.

أما حين ينظر الحكام الى الحكومة على أنها ملك لهم، ووسيلة لتحقيق غاياتهم البائسة، ووسيلة لمعالجة أمراضهم النفسية، فإن الحال هنا سوف يختلف، وسوف ينظر الحاكم الى الحكومة على أنها من أملاكه الشخصية وليست وظيفة إدارية يتقاضى عنها راتبا شهريا كأبي موظف آخر، أما الإمام علي عليه السلام فكان على العكس من الحكام الذين استغلوا السلطة كما يفعل الآن بعض حكام العراق والعرب، فيستغلون السلطة لصالحهم وأبنائهم، ويتركون الجوع يطيح بالفقراء ويعبث بهم، في كان عليهم أن يتعاملوا مع الحكومة كما تعامل معها علي (ع).

فالإمام علي صلوات الله عليه كان يعتبر الحكومة: (إدارة وليست ملكاً)، كما يؤكد ذلك سماحة المرجع الشيرازي.

مبدأ الجنوح الى السلم

ولكي يتم القضاء على أسباب انتشار الفقر والجوع بين الناس، ينبغي تحاشي الحروب، وعدم منح الخصم فرصة لإشعال فتيل الحرب، والانشغال بالعمل في إطار الدولة المدنية المستقرة، وهذا كان يستدعي تجنب سفك الدماء بكل الجهود الممكنة، إذ من المستحيل الجمع بين الحرب وبناء الدولة، لذلك سعى الإمام علي (ع) الى تحاشي الاصطدام واللجوء الى إقناع الطرف الآخر بالدخول في حوار مسالم.

نقرأ ذلك في قول سماحة المرجع الشيرازي بكلمته المذكورة نفسها: (كان الإمام علي بن أبي طالب صلوات الله عليه يتجنب الحروب وإراقة الدماء. ففي حرب صفين أرسل الإمام صلوات الله عليه، إلى معاوية بعض رسله ليقتنعه بعدم الحرب، فرفض معاوية وبدأ الحرب).

أولئك الحكام الأمويين كانوا مهووسين بالحرب، ولا يهتمهم إلحاق الأذى بأفراد الأمة، ولا يهتمهم الانشغال عن البناء والزراعة، كما لا يهتمهم زيادة نسبة الفقراء في مقابل ازدياد البذخ ومظاهر الغنى التي يستولي عليها حكام بنو أمية من بين أموال المسلمين فيقومون بصرفها على ملذاتهم ورغباتهم الفردية والعائلية الزائلة، وهذا كان سببا مهما في انتشار الجوع والفقير بين المسلمين، بعد أن كان الإمام علي (ع) يستغرب وجود فقير واحد في الدولة المترامية الأطراف.

إن الكف عن سفك دماء المسلمين كان هو المبدأ الأساس في سياسة الإمام علي (ع)، لأنه يحمي الأمة من الأذى، ويبعدها عن الانشغال بالحروب، وبدلا من ذلك يجعلها تنشغل بالإنتاج والزراعة ومضاعفة القوة الاقتصادية للدولة، لهذا كان منهج الإمام هو الجنوح الى السلم، وهذا ما حدث بالفعل، فما أن توقف معاوية عن الحرب، توقفت لأن الإمام علي (ع)، يرفض الحرب رفضا قاطعا، ولا يدخلها أو يخوضها إلا تحت حالة الاضطرار، وهي الدفاع عن النفس.

لذا يقول سماحة المرجع الشيرازي: (بمجرد أن توقّف جيش معاوية عن الحرب، ترك الإمام صلوات الله عليه الحرب معهم).